المدارس في زمن الغابرين

د. أحمد بن حامد الغامدي

2021-09-04

الأديب والمفكر الإيرلندي الساخر برنارد شو كتب يوماً ما بخبث قائلا: "لا يوجد شيء بشع على وجه الأرض مخصص للأشخاص الأبرياء مثل المدرسة". وبحكم أن الأطفال هم أكثر البشر براءة فنصيبهم وافر من هذه الملاحظة الساخرة لبرنارد شو.

منذ عدة سنوات كتبت مقالة ربما كانت صادمة للبعض حملت عنوان (العودة للمدارس .. لحظة كئيبة في طفولة عباقرة العلماء) ومع ذلك يبدو أن توسيع نطاق تلك المقالة يحتاج ألا يقف عند توصيف كآبة الدراسة للعباقرة فقط، ولكن لغالبية الطلاب، وكذلك أن هذه الكآبة والانقباض من الدراسة أمر ضارب بجذوره في عمق التاريخ.

يقال إن أولئك الذين لا يعرفون التاريخ محكوم عليهم بتكراره، ولهذا لو عرفنا تاريخ التعليم القديم لوجدنا أننا ما زلنا نكرر الأخطاء المدرسية ذاتها فيما يتعلق بتعليم الأطفال. فمنذ الأزل ما ينغص عليهم، بالإضافة لكارثة الاستيقاظ المبكر، هو الحد من حركتهم في الفصل وكثرة الضوابط والتحكم المفرط بهم. وموقف الطلاب من هذا الأمر متكرر عبر التاريخ، وهذا ما يتضح مثلاً من الاطلاع على مذكرات طالب سومري نقشها على لوح الطين المحروق قبل أكثر من أربعة آلاف سنة.

في مطلع القرن العشرين وجد علماء آثار الحضارة السومرية بأرض العراق حوالي 21 قطعة من الفخار المكتوب عليها باللغة المسمارية وهي تحكي يوميات طالب مدرسة قديم يذكر فيها الأشياء التي مرت عليه أثناء اليوم الدراسي والتي كان منها تعرضه للضرب بالعصا من قبل معلمه، ليس فقط لأنه لم يحفظ دروسه ولم يتعلم أن يكتب بخط سليم، ولكن أيضا بسبب سلوكه غير المنضبط.

يقول ذلك الطالب في مذكراته عن مدرسته السومرية في زمن الغابرين:

بعد أن ضربني المعلم بالعصا لأنه وجد نقص في كتابتي على اللوح الطيني جاء عريف الفصل وقال لي: لماذا فتحت فمك دون إذني..؟ ثم ضربني بالعصا.

ثم قال لي: عندما لم أكن هنا لماذا نهضت دون إذني ..؟ ثم ضربني بالعصا.

وقال لي حارس المدرسة: لماذا تغادر دون إذني ..؟ ثم ضربني بالعصا.

مدرس اللغة السومرية قال لي: لماذا تتحدث باللغة الأكادية ..؟ ثم ضربني بالعصا.

من هذا النص الأثري المنقوش باللغة المسمارية على ألواح الطين الفخارية، نعلم كآبة وسوء اليوم الدراسي في زمن الحضارة السومرية القديمة، والأمر لم يكن يختلف كثيرا زمن الحضارة الفرعونية. فعلى نفس النسق وجد علماء الآثار بعض أوراق مخطوطات البردي القديمة التي تكشف حال الطلاب في زمن الغابرين الفرعوني. في إحدى مخطوطات البردي الفرعونية المحفوظة الآن في المتحف البريطاني نجد أن أحد المعلمين كتب العبارة التحذيرية التالية، "احذر.. احذر من الكسل أيها الطالب لئلا تضرب بالعصا ضرباً أليماً".

وفي مخطوط آخر من ورق البردي مكتوب فيه ما هو أشبه بنصيحة من معلم لمعلم آخر: "أذن الصغير على ظهره، إنه يستمع فقط للرجل الذي يضربه". ودونت إحدى البرديات نصيحة أخرى من معلم إلى تلميذه هذه المرة حيث يقول له: "لقد بلغني أنك أهملت وأنك تتسكع في الطريق، إنك مثل المجداف المحطم، انظر إلي عندما كنت صبياً مثلك مكثت في المعبد ثلاثة أشهر لا أخرج منه".

من الناحية التاريخية يستمر مسلسل الهلع من المدرسة والنفور من المعلم مع الحضارة الرومانية هذه المرة، ففي مطلع القرن الثاني الميلادي بعث أحد الطلاب رسالة إلى والده يتشكى فيها من معلميه وحياته الدراسية. في مكتبة جامعة أكسفورد يتم حاليا حفظ تلك الرسالة الشخصية المكتوبة باللغة الإغريقية والمرسلة من طالب مجهول الاسم إلى والده المدعو ثيون. ويسرد الطالب في تلك الرسالة لوالده خيبة أمله من جودة المعلمين الذين يقومون بتدريسه وأنهم سيئين وغير مُلهمين، بل وصفهم بالهمل وسقط المتاع الذين يقودون إلى طريق الخراب. وبالرغم من كثرة الرسوم والأموال التي يدفعها الطالب للمعلمين إلا أنه يخبر والده أنه لسوء التعليم يضطر لأن يعتمد على نفسه والتعليم الذاتي. والغريب في الأمر أن الطالب يعرب لوالده أنه بسبب هذا الإحباط في حياته الدراسية بدأ يهمل مظهره العام وهندام ملابسه بالرغم من أنه من أسره ثرية.

وفي ضوء ما سبق وعندما نصل إلى الحضارة الإسلامية وبأخذ الاعتبار الصورة النمطية السلبية عن حياة الطلاب في (الكتاتيب)، لا غرابة أن نجد بعض الأخبار المحرجة عن نفور بعض الطلاب قديما، كما في الحديث، من المنظومة

التعليمة. هذا النفور قد يتسبب كما هو معلوم في الهروب المؤقت من المدرسة أو حصول ظاهرة (التسرب المدرسي) الدائم. في كتاب ضحى الإسلام للمفكر والمؤرخ الكبير أحمد أمين ورد ذكر قصة المغني العباسي إبراهيم الموصلي التي يرويها عنه ابنه إسحاق وكيف أنه عندما كان طفلاً أُدخل الكُتّاب (فكان لا يتعلم شيئاً، ولا يزال يُضرب ويُحبس ولا ينجح ذلك فيه، فهرب إلى الموصل وهناك تعلم الغناء).

ونظرا لشيوع سوء معاملة المدرس للطلاب في الكُتّاب انتقل مشهد الإجحاف في (التأديب) إلى قصائد (الأدب). فهذا الشاعر الحسن بن هانئ (أبو نواس) يتحدث عن معلم صبيان يدعى حفص عنيف في تعامله مع طلاب الكتاتيب وكيف أنه أمر بضرب أحد الطلاب بسوط من جلد وذلك بعد أن تم خلع ملابسه عنه حتى يعاني أشد العقاب والهوان:

قال حفصٌ اجلدوه إنه عندي بليدُ

لم يزل مُذ كان في الدرس عن الدرس يحيدُ

كُشفت عنه خزوزٌ وعن الخزّ بُرودُ

ثم هالوه بسيرٍ ليّنٍ ما فيه عودُ

عندها صاح حبيبي يا مُعلم لا أعودُ

وأي تأديب وتهذيب هذا الذي يتم فيه ضرب وجلد الأطفال الصغار بشدة مهلكة؟ ولهذا أعترض الفقيه المغربي ابن الحاج العبدري عن استخدام أدوات للضرب تفوق ما يستخدم في الشرع الحنيف في تنفيذ الحدود. ولهذا استنكر ابن الحاج على (المؤدبين) ومعلمي الكتاتيب في عصره استخدام عصا اللوز اليابس والجريد المشرّح والأسواط النوبية والفلقة وما أشبه ذلك مما أحدثوه وهو كثير حسب وصفه.

وفي الختام أعلم (وأعتذر في نفس الوقت) بأن تلك الإضاءات والفلاشات الكاشفة لتاريخ المدارس في العصور الغابرة هي الاستثناء وليس الأصل في مسيرة التعليم الخالدة، ولهذا لا مساس على الإطلاق بدور المعلم ورسالة المدرسة في القديم والحديث. ومع ذلك ومع بداية الدوام الدراسي لهذه السنة في يوم غد الأحد وبعد انقطاع عن الحضور المباشر للمدارس لفترة قاربت السنتين، ينبغي على أهل التعليم الرفق بالتلاميذ وتفهم ما قد يظهر منهم من الضيق بالدراسة أو عدم التركيز والميل للملل.

فكما حصل في زمن الغابرين القديم وزمن الطيبين القريب وزمن المرفهين المعاصر تتشابه طبيعة النفس البشرية في نظرتها للمدرس. ولو راجعنا ما سبقت الإشارة إليه لتعجبنا أنه ومنذ أكثر من أربعة آلاف سنة وطلاب المدارس يتأففون من الدراسة وبعضهم يشتكي إلى أسرته سوء مستوى وعنف معلميه بينما الأدباء والشعراء يتخذون (المشهد المدرسي) مادة دسمة لإنتاج أدبي فريد.

تواصل مع الكاتب: ahalgamdy@gmail.com

=src **الآراء الواردة في هذا المقال هي آراء المؤلفين وليست، بالضرورة، آراء منظمة المجتمع العلمي العربي.**

يسعدنا أن تشاركونا أرائكم وتعليقاتكم حول هذهِ المقالة عبر التعليقات المباشرة بالأسفل

أو عبر وسائل التواصل الإجتماعي الخاصة بالمنظمة

=src =src =src =src